الاستشفاف والتخاطر

بقلم مصطفى إسماعيل سويف
ليسانسيه فى الآداب

استهل الدكتور ألكسيس كاريل Dr. Alexis Carrel حديثه عن هاتين الظاهرتين[1] بقوله « إن وجود الاستشفاف والتخاطر أمر مفروغ منه . . . » وعلى العكس من ذلك السير إدوين لا نكستر Sir Edwin R. Lankester فقد تحدث فى مجلة « المرشد الأدبى » عما سماه « ضلال ظاهرة التخاطر » . ويعلق الدكتور جوزيف سينل Joseph Sinel على هذه العبارة الأخيرة بقوله « رأيت فى هـذا القول دليلا على أنه ما زال بين أكبر علمائنا شأناً من ينظرون إلى هذا الموضوع نظراً سطحياً ، ثم لا يترددون مع ذلك فى الحكم عليه حكماً جائراً ، يحمل أغلب الناس على الظن أنه حكم صائب ، لعلمهم أنه صادر من قوم بينهم و بين العلم أواصر وأوشاج . »[2]

والواقع أن مشكلة التخاطر والاستشفاف باعتبارهما ظاهرتين موجودتين فعلا ، أمر يستحق النظر ولا يمكن أن تكفى فيه مثل هذه العبارة التى ألقاها الدكتور كاريل فى سرعة واطمئنان ؛ لذلك آثرت أن أبدأ البحث بإجراء بعض التجارب التى تمتاز بصبغتها العلمية (بقدر الإمكان) ، حتى إذا انتهيت من هذا الجزء وثبت لى وجود الظاهرتين أو واحدة منهما ، انتقلت إلى الإجابة عن سؤال آخر ، لعله أقرب إلى طبيعة العلم ، وهو كيف تحدث هذه الظاهرة أو تلك ، أى تفسير حدوث ظاهرة مسلَّم بوجودها .

على أن هذه التجارب التى أوردت ذكرها لم أكن صاحبها بمفردى ، بل ولا

---

(١) Alexis Carrel: L'homme, cet inconnu. P. 144-6

(٢) « الحاسة السادسة » : تأليف جوزيف سينل ، وترجمة أحمد محمد عبد الخالق بك ومحمد بدران . القاهرة ١٩٤٥ — (١٤٣ ص) الصفحة ٦ .

صاحب الجزء الأكبر منها ، إنما شاركنى فيها حضرات زملائى ، الآنسة سميحة زكى وفؤاد واصف ومحمود العالم وأمين عز الدين وكنا جميعاً نلقى المعونة القيمة من زميلنا الكبير الأستاذ أبى مدين الشافعى ، ولست فى حاجة لأن أذكر أن هؤلاء الزملاء جميعاً لم تقتصر جهودهم على إجراء التجارب فحسب ؛ بل امتدت إلى إبداء ملاحظات وتعليقات قيّمة أفادتنى فى تجلية بعض نواحى هذا الموضوع الغامض .

وربما كان من الأفضل فى هذا البحث وما إليه مما لا يزال يدخل فى باب العلم الخفى occultism أو ما بعد النفس metapsychic أن نستمع إلى قول السير أوليفر لودج Sir Oliver Lodge ونعمل بنصيحته إذ يقول « إن المعرفة لن تتقدم إلا إذا اختفى هذا السؤال، هل تعتقد فى هذه الأشياء ؟ » أو كان على الأقل مسبوقاً بالسؤال القائل « ماذا تعرف عنها ؟ »[١]

لذلك نبدأ بتعريف كل من الظاهرتين .

عرّف مايرز[٢] F. W. H. Myers التخاطر (telepathy) (وهو مخترع هذا الاسم) « بأنه توصيل التأثيرات من أى نوع كانت من ذهن لآخر ، دون استعانة بمسالك الحس المعروفة . » وعرّف الاستشفاف بأنه « ملكة أو فعل الإدراك الذى يشبه أن يكون بصرياً ، ويكون مطابقاً إلى حد ما ، لشىء بعيد . » ويعقّب على ذلك صاحب المقال فى الموسوعة البريطانية (مادة Clairvoyance) بقوله ولكنه — الاستشفاف — أصبح الآن يعنى أى نوع من المعرفة غير المعتادة لدى ذهن دون أن تأتى من ذهن آخر ، وليس يهم إذا كانت بصرية أم غير بصرية . أما تيشنر Tischner فهو وإن اتفق مع فريدريك مايرز فى معنى التخاطر إلا أنه يعرّف الاستشفاف بأنه تبصّر بالحوادث وما جريات الأمور . . . الخ التى لا تأتينا

(١) Oliver Lodge :The survival of man. PP. XIV+239 London 9th ed. p. 85

(٢) فريدريك وليم هنرى مايزر ، أديب إنجليزى (١٨٤٣ — ١٩٠١) صاحب كتاب «المهلوسات التخاطرية» . وهو غير شارلز سموئيل مايرز S. C. Myers المولود عام ١٨٧٣ وأستاذ علم النفس التجريبى فى جامعة كمبردج ومدير معهد علم النفس الصناعى فى لندن .

المعرفة بها عن طريق حواسنا المعتادة ، والتى نحصل عليها دون اعتبار لما إذا كان الشيء قريباً أو بعيداً ، ودون اعتبار لبعد الحوادث فى المكان أو فى الزمان . أى أنه يتوسع فى استخدامها حتى تشمل كل الظواهر الذهنية الخفية التى لا تدخل ضمن مدلول التخاطر . وكذلك يعرّف السير أوليفر لودج التخاطر بأنه « الفعل المباشر لذهن على ذهن آخر بوسائل غير معروفة للعلم »[١] ويقول فى موضع آخر « إننى أستخدم لفظة ذهن هنا بمعناها الشائع دون تحديد صارم »[٢] إلا أن الدكتور سينل يعرّف كلاً من الظاهرتين تعريفاً يتضمن نظريته فى تفسيرهما ، فيقول عن التخاطر إنه « عبارة عن حدوث حركات ذرية فى عقل شخص ما مطابقة لمثيلاتها فى عقل شخص آخر »[٣] ويقول عن الاستشفاف « إنه إدراك الأشعة المغنطيسية أو قل الموجات المغنطيسية المنبعثة من الأجسام المحيطة بنا ، والتى من شأنها أن تخترق كل جسم يعترضها بدون حاجة إلى الاستعانة بأى عضو من أعضاء الحس المعروفة »[٤]

ومن الواضح أن التعريفات السابقة تتضمن معنى مشتركاً ، على الرغم مما بينها من اختلافات ؛ فالتخاطر انتقال أفكار من ذهن إلى ذهن دون الاستعانة بالوسائل المألوفة ، والاستشفاف لا يشترط فيه وجود ذهن آخر ، على أن تتم المعرفة فى هذه الحال أيضاً بالوسائل غير المألوفة . وقد أطلق شارل ريشيه[٥] العالم الفسيولوجى كلمة Cryptesthésie الإحساس الخارق الخفى على هاتين الظاهرتين وما يماثلهما[٦]

* * *

ولعل أقدم تجربة عرفها التاريخ ، فى هذا الصدد ، هى تلك التى أورد هيرودوت ذكرها فى كتابه الأول (ص ٤٦ — ص ٤٩)[٧] قائلا إنها أجريت عام ٥٥٠ ق.م.

---

(١) المرجع السابق ص ٧٦
(٢) المرجع السابق ص ٦١
(٣) الحاسة السادسة ص ٥٥
(٤) المرجع السابق ص ١١
(٥) Charles Richet : Traité de Métapsychique : 2e éd. Pp. 817. Paris 1923
(٦) راجع قاموس مصطلحات علم النفس . العدد الأول من هذه المجلة ص ١٠٢ — ١٠٣
(٧) من مقال بعنوان « التخاطر التجريبى » نشر فى العدد ٤ عام ١٩٢٦ فى مجلة ما بعد النفس . Revue métapsychique, 4, 1926.

قال هيرودوت :

« عزم كرويزوس Cresus على أن يمتحن هاتف الإغريق وهاتف ليبيا . فبعث عدداً من الوفود متجهين وجهات مختلفة ، بعضهم إلى دِلف ، و بعضهم إلى آدِس فى فوكيديا، والبعض إلى دودون ، وغيرهم إلى هاتف آمفياراوس ، و إلى غار تروفونيوس و إلى البرنشيد فى ميليزيا أو فى ليبيا عند معبد « المشترى آمون » :وقرر أنه إن توصل إلى هاتف مطّلع على الحقيقة ليستشيرنَّه مرة أخرى ليعرف ما إذا كان ينتظر النصر لو أنه أعلنها على الفرس حرباً ضروساً . وألقى الأمر إلى مبعوثيه أن اسألوا بعد مائة يوم تبدأ من يوم رحيلكم ، عما أكون غارقاً فى فعله ذلك اليوم ، وأن اكتبوا إلىّ تنبئونني بإجابة كل هاتف .

فلما دخل الليديون معبد دلف (ويقول هيرودوت إنه لم تصل إليه سوى إجابة هذا الهاتف ، أما الإجابات الأخرى فقد ضاعت) وسألوا الهاتف عما طُلِبَ إليهم ، كان الجواب : « إنى أعرف عدد ذرات الرمال وشواطىء البحار ؛ إنى أعرف لغة البُكم ، وأسمع صوت من لايتكلم ؛ تهب على حواسى رائحة سلحفاة تُطهى مع لحم حَمَلٍ فى قِدْرٍ من النحاس له غطاء من النحاس أيضاً » .

وعاد المبعوثون جميعاً ، وقرأ كرويزوس إجابتهم ، وليس من شك فى أنه وجد فيها ما لم يوافق عليه؛ إلا أنه حين قرأ إجابة هاتف دلف ، رأى أنها مطابقة للحقيقة و بقى معتقداً أن هذا الهاتف هو وحده المطلع على الحقيقة لأنه هو وحده الذى عرف ما كان يفعل . (وهو على مسافة مائتى فرسخ منه) .

والحق إنه بعد رحيل المبعوثين جعل يتخيل ما رآه أصعب شىء يمكن أن يعرف « بالتنبُّؤ » . وفى اليوم المتفق عليه ، قطّع بنفسه حَمَلًا وسلحفاة ، وجعل يطهيهما معاً فى وعاء من نحاس له غطاء من النحاس أيضاً[1] .

(١) المرجع السابق .

تلك التجربة الشيِّقة تبدو عليها الصبغة العلمية واضحة كل الوضوح ، رغم أن صاحبها لم يكن يقصد ذلك ، بل كل ما كان يقصده هو امتحان قدرة الهاتف حتى يستطيع الاطمئنان إلى نصائحه فيما بعد ، وقد ورد ذكر هاتف دلف فى الكثير من أخبار الإغريق ، والظاهر أن نصائحه كانت قيِّمة فعلا ، وقد حاول ستوبارت[1] أن يعلل ذلك بقوله إن كهنة ذلك المعبد كانوا ذوى معرفة واسعة بشئون البلاد الاقتصادية والسياسية والجغرافية ، وعلى أساس هذه المعلومات كانوا يدلون بنصائحهم إلى من يستشيرهم من القادة والملوك، إلا أننى لا أزيد هنا على أن أتقدم بهذا السؤال، هل هناك ما يمنع من القول بأنهم كانوا يستعينون بالتخاطر والاستشفاف ؟

إن بعض العلماء المبجلين ينزعون إلى إبعاد هاتين الظاهرتين عن ميدان العلم ، وحجتهم فى ذلك أنه لكى يمكن إدخال إحدى الظاهرات فى حيز العلم ينبغى أن تخضع أولاً للتجربة يجريها الباحث حينما يريد وفى أى مكان شاء ، إلا أن هذا القول يبدو عليه التهافت إذا ذكرنا أننا فى حالة الفلك والميتورولوجيا والظاهرات المرضية فى علم النفس نعتمد على المصادفة لدراسة ظاهراتها ، ومع ذلك ليس يوجد من يجرؤ على القول بإبعادها خارج الميدان العلمى .

على أن تجاربى فى التخاطر والقراءة العضلية قد نجحت بنسبة ٥٩ ٪ ، ومع التسليم بأن هذه النسبة قد دخلت فى إنتاجها (بطريقة لاشعورية) عوامل لا تقرها الروح العلمية ، من اتجاه خاص لى (الذى أجريت التجارب) وميل إلى الإتيان بنتائج موجبة ، واتجاه شقيقتىّ (وقد أجريت عليهما الكثير من تجاربى) الاتجاه نفسه (تبعاً لعوامل نفسية) فإذا أدخلنا هذه الأمور فى حسابنا وخفضنا نسبة النجاح إلى النصف فإن هذه النسبة نفسها أى ٣٠٪ كافية لإخراج الأمر من حيز الصدفة إذ نسبة احتمال وقوع الأمر المنتظر بمجرد الصدفة لا تتجاوز ٢٠٪ فى التجارب التى أجريناها .

---

(١) « مجد الاغريق » تأليف ستوبارت — J. C. Stobbart — الترجمة العربية بقلم صاحب المقال معدة للطبع .

أقول ذلك رداً على من يحاولون أن يفسروا بالصدفة ظاهرة التخاطر التلقائى ، فمما لا شك فيه أن الكثيرين منا قد لاحظوا ما يحدث أحياناً فى جلساتهم العائلية أو مع بعض الأصدقاء ، يسود الصمت قليلا وفجأة يتكلم شخصان و يعبران عن فكرة واحدة ؛ و يحدث أحياناً أن نعقد العزم على زيارة أحد الأقرباء أو شخصاً عزيزاً علينا ، فنتأهب للذهاب و إذا به يطرق الباب قادماً لزيارتنا ؛ وقد يحدث كذلك أن تودع أمّ ابنها المسافر ، وتعود إلى بيتها فتقضى بعض الأيام فى هدوء ، ينتابه من حين لآخر نوع من الحنين إلى الأبن البعيد ، ولكن حالها تتبدل فجأة و إذا بالأفكار السوداء تسيطر عليها فتشعر بانقباض وقلق ليس له مبرر ظاهر ، ثم إذا بها تتلقى برقية تنبئها بوفاة ابنها أو بإصابته فى حادث خطير

كل هذه الاحداث يصل إلينا نبؤها ، وقد تحدث أمامنا ، فنحاول أن نفسرها بأنها محض صدفة ، ولست أنكر أن الصدفة قد تكون هى العامل أحياناً ، إلا أن استمرار القول بالصدفة فى تفسير ظاهرة يتكرر حدوثها يعتبر نوعاً من الفرار من المشكلة ؛ بينما يقضى الموقف السليم بأن نتأملها ونحاول أن نجد لها تفسيراً مؤداه أن هذه الظاهرة تحدث نتيجة لتوفر شروط معينة ، فإذا تغيب أحد هذه الشروط تخلفت الظاهرة ؛ وليس معنى ذلك أن نفرض هذه الشروط بما يوحيه تفكيرنا ، بل نستنبطها من طبيعة الظاهرة .

وقد أجرى تيشنر Tischner تجارب فظهر له منها أن التخاطر لا يتم إلا عند أفراد قليلين ، ليس منهم من هو سوىّ normal . ويذهب بوتسانو Bozzano مذهبه هذا فى قوله « لست أدرى كيف يريد البعض أن يحصلوا على ظواهر تخاطرية ، أى ظواهر شاذة بواسطة أفراد أسوياء تماماً » .[1] ويتفق معهما الدكتور سينل بمعنى ما . إلا أن السير أوليفر لودج يظهر أنه لا يقول بهذا الرأى ، وقد أورد ذكر الكثير من حوادث التخاطر التلقائى بعضها قد حدث لزوجه ، و إحداها حدثت لغاريبالدى وهو

(١) عدد سبتمبر ١٩٢٥ من مجلة ما بعد النفس من مقال لبوتسانو فى « الاتصالات الوسيطية بين الأحياء » .

فى أواسط المحيط الهادى فعلم بموت أمه فى نيس ؛ كذلك لاحظت فى تجاربى الخاصة التى أجريت معظمها على شقيقتى ؛ فنى حياتى معهما لم أشهد ما يمكن أن يسمى استعدادات شاذة لهذا الموضوع ؛ هذا إلى أنهما لا تبدو عليهما مظاهر الشذوذ فى أية ناحية ، ولا يبدو عليهما شىء من المظاهر الهستيرية (التى لاحظت وجودها لدى بعض الأفراد الذين أجرى تيشنر تجاربه عليهم) كذلك لا يبدوا الشذوذ على زملائى الذين أجريت معهم بعض التجارب .

على أننى أرى أن أذكر تجربتين على سبيل المثال ، إحداهما فى القراءة العضلية والأخرى فى التخاطر ؛ والقراءة العضلية نوع من قراءة الأفكار أو الاطلاع على أفكار شخص ما بالاستعانة بحركات عضلية تتم لديه بطريقة لا إرادية ، ونعرفها حين نمسك بيده أو نكون فى حالة اتصال جسمى به ، فينتج عن ذلك أن تهتز عضلاتنا بنوع من التناغم ، وينتج عن ذلك أن تحصل لنا المعرفة بما يفكر فيه ، باعتبار أن التفكير نوع من الكلام الباطنى ؛ وقد عرف هذه الطريقة (بمعنى ما) الفيلسوف الاسلامى أبو على بن سينا وأشار إليها فى كتابه « القانون » فى الطب باعتبارها الخطوة الأولى فى علاج ما سماه « مرض العشق » ؛ فالقراءة العضلية muscle reading تختلف إذاً عن التخاطر ، بما تحتمه من اتصال جسمى بين «العامل» agent والمستقبل percepient . أما التخاطر فيشترط فيه عدم وجود هذا الاتصال .

(١) تجربة القراءة العضلية :

(مجموعة محددة من الألفاظ ، يرددها العامل بصوت مرتفع بضع مرات ثم يسود الصمت ، وهو يمسك بيد المستقبل ، والغرفة مظلمة) .

العامل : الآنسة إنعام سويف (السن ١٤ سنة) المستقبل : مصطفى سويف (السن ٢١ سنة)

الألفاظ : راديو اسطوانة منشفة نتيجة

تقرير المستقبل : ظلام لمدة يسيرة ، وجدتنى أحاول الخروج منه لأتصور (راديو) ولكنى عدت سريعاً إلى حال سلبية ، بقيت كذلك بضع لحظات ، ثم رأيت صورة (اسطوانة) تدور فوق قرص حاكى [جراموفون] ، وحولها ضوء وأما ما عدا ذلك فلا شىء وكأن الاسطوانة ترتفع وتنخفض .

تقرير العامل : كنت أشهد فى ذهنى صورة أسطوانة تدور فوق قرص حاكى وكنت أردد كلمة اسطوانة دون أن أفتح فمى . [إيجابية]

(٢) تجربة التخـــاطر :

(الأعداد الطبيعية من ١ — ١٠ ، والعامل لا يردد الأعداد بصوت مرتفع كما كنا نفعل فى القراءة العضلية ؛ الوقت مساء والتجربة تجرى فى حجرة مملوءة بالأثاث والمصباح الـكهربائى مضىء ، العامل والمستقبل من زملائى)

العامل : فؤاد واصف (السن ٢٣ سنة) المستقبل : مصطفى بهيج (السن ٢٢ سنة)

العدد : (وقد اختاره العامل بينه وبين نفسه) ٩

لم تستغرق التجربة سوى خمس ثوان . ثم قال المستقبل ٩

(ويلاحظ أنه لا يوجد أى اتصال جسمى بين العامل والمستقبل . كما أن المجرب يجلس فى منتصف المسافة بينهما) . [إيجابية]

ذكرت تجربة القراءة العضلية لأنها نوع من قراءة الأفكار بطريقة غير معتادة ، وإن كان العلم يسلم بها لأنه يستطيع تفسيرها ؛ ومع ذلك فإننا إذا تأملنا تلك التجربة لم نجدها تجربة فى القراءة العضلية فحسب بل فى التخاطر أيضاً ، ولو أن ذلك حدث بطريقة عرضية ؛ يقرر كل من العامل والمستقبل رؤية « اسطوانة تدور فوق قرص حاكى » ، هذا الاتحاد فى رؤية صورة ذهنية لا تفسره لنا حركات العضلات ، إنما هذه الحركات تفسر لنا انتقال الإسم فقط ، لأن العامل يردده (بينه وبين نفسه) وما دام يردده فلا بد من وجود اختلاجات عضلية عنده لها وقع معين ، وهذه تنتقل إلى المستقبل بطريقة الاهتزاز القسرى ، فلا يلبث أن يجد نفسه يردد الـكلمة التى يرددها العامل أو كأنه ينصت إلى نغمتها تنبعث من نفسه ؛ أما انتقال الصورة فلا يمكن تفسيره هكذا ؛ ربما يقال إن الـكلمة قد انتقلت من العامل إلى المستقبل ، وكل ما حدث بعد ذلك أن المستقبل قرنها بصورة الشىء الذى تعبر عنه وهذا شىء نفعله دائما ، إلا أن الصورة هنا محددة تحديداً معيناً فهى « اسطوانة تدور فوق قرص حاكى » ؛ لا نستطيع أن نقول إنها الصدفة لأن مثل هذه التجربة قد تكرر بينى وبين كل من شقيقتى ؛ وبهذه المناسبة يخيل الىّ أنه كان يحسن بتشنر أن يورد لنا فى تقريره عن التجارب نوعا من الاستبطان للعامل أيضاً ، بدلا من أن يكتفى باستبطان المستقبل ، (ويلاحظ أن تسميتنا لحديث المستقبل فى تجارب تشنر بأنه استبطان فيها بعض التجاوز) .

وقد أشار فاركولييه M. R. Warcollier فى مقاله المنشور بمجلة Metapsychic (عدد ٤ يوليو—أغسطس سنة ١٩٢٦) إلى أن نجاح التجارب تزداد نسبته زيادة مطردة مع مقدار ما بين العامل والمستقبل من ألفة وتعاطف ؛ وكنت أرى هذا الرأى (بنوع من الحدس أو ربما كان بتأثير بعض الآراء الشعبية) قبل أن أقرأ هذا المقال ، إلا أن تجاربى لا تثبت ذلك بطريقة قاطعة ، كما أنها لا تنفيه ، لذلك أرى أنه ليس شرطاً ضرورياً لنجاح التجارب فى هذا الميدان أن يكون العامل والمستقبل مكوِّنين لما يسمى « بالزوج النفسى Couple psychique » ، وقد يعترض البعض بأن هذه التجارب لم تجر إلا على شقيقتى وبعض زملائى ، ومما لا شك فيه أن عامل الألفة متوفر فى هذا المجال ، وهذا حق ، إلا أننى حاولت أن أقارن بين نسبة النجاح ودرجة الألفة ، فافترضت أن ازديادها بين شخصين يرفع نسبة نجاح التجارب (أى جعلها تأتى بنتيجة إيجابية) ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، بل كان يحدث العكس أحياناً ، ومع ذلك أقرر أن الفرصة لم تتح لى كى أجرى بعض التجارب على أشخاص غرباء ، فإلى أن تتاح ربما أستطيع أن أدلى برأى يقينى .

على أن المران من شأنه أن ييسر القيام بأى عمل ، هذا أمر لا شك فيه ، وليس ما يمنع من العمل بهذا الرأى فى تجارب التخاطر ، وقد أشار فاركولييه إلى أن استخدام مستقبلين متمرنين من شأنه أن يزيد نجاح التجربة ، والدكتور سينل يحسب لهذا الرأى حساباً كبيراً ، ويجعله إحدى دعائم نظريته التى سنشرحها بعد قليل ، غير أنى لا أرى أن نبالغ فى أهميتها بهذا القدر ، وإلا لتعذر على أن أجرى تجاربى ، التى أجريتها على أشخاص لم تكن لهم بهذا الموضوع أية خبرة سابقة .

إلا أنى لاحظت أن أهم ما ينبغى الانتباه إليه فى هذه التجارب أن يقف المستقبل موقفاً سلبياً خالصاً (بقدر الإمكان) فيمتنع عن مباشرة أية عملية فكرية أثناء إجراء التجربة ؛ وقد قمت فى بعض التجارب بدور المستقبل فلاحظت أهمية هذه القاعدة ، كما لاحظت أن العمل بها شاق جداً ، وهو فى الغالب لم يكن تاماً (فأنا شخصياً لم أستطع الامتناع عن التفكير تماماً) ، وقد حاولت أن أجرى بعض التجارب على

والدتى (باعتبارها مستقبلا) وهى سيدة مثقفة فى الحلقة الخامسة من عمرها ، ولكنها تبينت استحالة الامتناع عن التفكير بل وتعذر الانخفاض به إلى مستوً أقل (من حيث عدد العمليات الفكرية مثلا فى وحدة زمنية معينة) .

هذه الملاحظة لها أهميتها ، إلا أنها تحتاج إلى نوع من التمحيص والمناقشة أعمق من ذلك ، لأنها إذا كانت على جانب عظيم من الأهمية ، فكيف نفسر حدوث التخاطر التلقائى ، أنستطيع أن نقول إن بعض اللحظات تمر بنا فى حياتنا المتيقظة ، نكون فيها سلبيين تماماً ، لا نقوم بالعمليات الفكرية المعتادة ؟

وقد لاحظ كل من تيشنر والدكتور سينل والسير أوليفر لودج أهمية شرط السلبية هذا ، ورأوا أن بعض المستقبلين يستعينون بالنظر فى قطعة كبيرة مصقولة من البللور (وهو ما يسمونه بالتحديق البلورى) لبلوغ هذه الحالة السلبية ، ويرى سينل أن مسألة النظر فى بقايا القهوة فى الفنجان ، أو النظر فى الكف أو فى النجوم ، لا تزيد على أن تؤدى وظيفة التحديق البلورى ، وبذلك يصل المستقبل إلى إيقاف الفكر ، ويطلع على الفكرة التى تشغل بال العامل ، أما تيشنر فيرى أن بلوغ هذه الحالة السلبية معناه الخروج من مستوى الشعور إلى مستوى ما تحت الشعور ، وبلوغ هذا المستوى من شأنه أن يتيح للتخاطر أن يتم ، وسنرى كيف يمكن ذلك حين نعرض لنظرية تشنر في تفسير التخاطر .

هناك ملحوظة أخرى لها أهميتها ، فالعامل ينبغى أن يركز كل مشاعره فى فكرة ما حتى يستطيع المستقبل أن يتلقفها منه ؛ فقد لاحظت أن اللفظة التى أحاول إرسالها إلى المستقبل تتضارب مع غيرها عندى (وقد كنت أقوم بدور العامل) فلا أستطيع أن أركز فيها مشاعرى ، ومن ثم كان يحدث غالباً ألا تنتقل إلى المستقبل فتكون النتيجة سلبية ، وفى إحدى التجارب لاحظت شقيقتى الكبرى (وكانت تقوم بدور العامل) هذه الملحوظة نفسها ، إذ جاءت النتيجة سلبية فقالت لقد كنت أتوقع ذلك لأني لم أكن أركز مشاعرى فى الكلمة التى كنت أرسلها ، (وربما تبدو هنا أهمية الملحوظة التى أبديتها قبل ذلك بقليل حين قلت بوجوب استبطان العامل وعدم الاكتفاء باستبطان المستقبل) .

إلا أن شرط الموقف السلبي لدى المستقبل يظهر أنه أهم من شرط تركيز المشاعر لدى العامل ، ولكي أوضح ذلك أذكر هذه التجربة .

العامل : مصطفى سويف
المستقبل : آنسه سميحة + الأستاذ الشافعي + فؤاد واصف
(ليس بين المستقبلين اتصال مادى ؛ وهم يجلسون حول مائدة خشبية مستديرة ولا يهتمون بلمسها ، العامل يتخير رقما من بين سلسلة الأعداد الطبيعية)

الرقم : ٣
تقرير : الاستقبال صحيح عند فؤاد ، ويلاحظ أنه فى مواجهة العامل ، أما الأستاذ الشافعى والآنسة سميحة فقد استقبلا استقبالا آخر غير ما أرسله العامل ولكنه متحد بينهما ، وهو الرقم (٤) . [ويلاحظ أنهما يجلسان متقابلين] [نصف إيجابية]

فى هذه التجربة نلاحظ أن بعض المستقبلين قد اتحدوا فى استقبال شيء لم يقل به العامل ، مع أن العامل كان يركز مشاعره فى فكرة معينة ، ومع أن كلا من المستقبلين كان يحاول الوقوف موقفاً سلبياً ، كيف حدث إذاً أن تم التخاطر بين اثنين من المستقبلين ؟ وقد تعدد حدوث هذه الظاهرة فى كثير من التجارب ، سواء فى ذلك تجارب التخاطر وتجارب القراءة العضلية .

يفسر فاركولييه هذه الظاهرة بما يسميه السمع اللاشعورى العام ، ويقول أنه توصل إلى هذا الرأى بطريقة حاسمة بعد أن أجرى كثيراً من التجارب ، عام ١٩٢٤ على مستقبلين موزعين فى حجرات مختلفة . أو تفصل بينهم مسافات أكبر من ذلك غير أن هذا التفسير لا يزيد على أن يذكرنا بالتفسير الذى قدمه كل من ليمان Lehmann وهانسن Hansen عما سمياه « نظرية الهمس فى التخاطر » ومؤداها أن التخاطر يتم بواسطة همس لا إرادى لاشعورى وأن خطأ المستقبل على هذا الأساس ناتج عن خطأ سمعى .

إلا أننا لكى ندرك قيمة هذا التفسير ، لظاهرة التخاطر بوجه عام ، ولظاهرة الخطأ المتحد بين بعض المستقبلين يلزمنا أن نعرف أولا ما الذى ينتقل ، أهو اسم الشيء أم صورته (فى حالة الأشياء المادية) أم هو تمثيل ما لما تعبر عنه فكرة عامة (فى حالة المعنويات) ، وقد شاهدت فى تجاربى أن الصور تنتقل كما أن الأسماء تنتقل أحيانا ،

فإذا صح القول بالسمع اللاشعورى العام فى حالة الاسماء فهل يصلح لتفسير الخطأ إذا حدث على هيئة ظهور صورتين متماثلتين لدى بعض المستقبلين .

ها هنا أنتقل إلى الحديث عن بعض النظريات التى قيلت فى تفسير ظاهرة التخاطر بعد أن ثبت لأصحابها وجود هذه الظاهرة ، وكان هذا الأمر مسلماً به لدى هيجل وشلنج وشوپنهور وفخته وفون هارتمان ، ولم يجد وليم جيمس بُدًّا من التسليم به ، وكثيراً ما حث أتباعه على النظر فى هذه الحقائق التى أعرضوا عنها ولم يجدوا من وقتهم متسعاً للعناية بأمرها .

يرى تشنر أن العمليات التى تجرى لدى العامل والمستقبل ذات طبيعة « نفسية » ويقول إنه ليس من مراعاة الأسس المنطقية فى شىء أن نبدأ البحث بتجاهل ما هو نفسى ، بينما هو موجود فعلا . ثم يشير إلى أنه يأخذ بنظرية إريك بخر Erich Becher التى ترفض الفيزيولوجيا النفسية وتقول بوجود كثير من العمليات النفسية أو الذهنية التى لا تعتمد على مادة المخ بحال ما . ومعنى ذلك اذاً القول بإمكانية فعل الذهن خارج الجسم ، أى من شخص لآخر مباشرة كما هى الحال فى النقل الفكرى أو التخاطر .

فنظرية «الذهن » هذه إذاً تقرر أن الانتقال فى التخاطر والاطلاع فى الاستشفاف هما من قبيل « الظاهرات الذهنية » ، ولما كان الذهن موجوداً غير مكانى ، فإن له بالمكان علاقة مختلفة كل الاختلاف عن تلك العلاقة التى تربط الأشياء المكانية بالمكان .

على أننا قد لاحظنا أن المستقبل يحاول بلوغ حالة سلبية حتى يتم النقل الفكرى ، ويستنتج تشنر من ذلك أن هذا النوع من الظاهرات لا يتفق وحياتنا المتنبهة المتيقظة ويقول إن بينهما من التعارض مايجعل الأولى تختفى أثناء وجود الثانية ، ومن ثم كان التحديق البلورى إحدى الوسائل لإخماد حياتنا اليقظة وإظهار تلك الظاهرات غير السوية ، ولكن كيف يحدث هذا فعلا ؟

يقول تشنر إن الناحية الشعورية من ذهننا تمتاز بفرديتها ، فلكل فرد عالمه

الذهنى المشعور به وهذا العالم مغلق عليه ولا يستطيع أى فرد آخر أن يطلع على ما به إلا إذا سمح صاحبه بذلك عن طريق اللغة أو سواها من الوسائل الاجتماعية المتواضع عليها ، أما ما تحت الشعور فيمتاز بأنه « غير فردى » ويمكن القول بأنه الذهن الذى يشارك فيه العالم بأسره ، أى أنه ذهن فوق الفردى وبذلك تكون لديه معرفة بأشياء لا يمكن للعقل الفردى تحصيلها ، وما التحديق البللورى سوى وسيلة للخروج من العقل الفردى إلى مستوى ما تحت الشعور حيث المعرفة شائعة ، وحيث لا يقوم حائل بين المستقبل والعامل .

تلك خلاصة نظرية تشنر فى تفسير ظاهرة التخاطر ، إلا أنه لم يفسر لنا الصلة بين الشعور وما تحت الشعور ؛ وبذلك تكون نظريته مبتورة ، أو على الأقل ينقصها ما نسميه « بالحلقة المفقودة » ؛ فقد قال إن الحالة السلبية التى يصل إليها المستقبل تجعله فى مستوى ما تحت الشعور ، ولكنه لم يقل شيئاً عن الفكرة لدى العامل ، أتوجد هى الأخرى فى مستوى ما تحت الشعور ، سياق حديثه لا يتفق وهذا الرأى ، إذ أن العامل يفكر فى شىء معين وفى أثناء تفكيره تنتقل الفكرة إلى المستقبل ، ومعنى ذلك أن الفكرة تكون عند العامل فى بؤرة الشعور وتنتقل إلى المستقبل عن طريق ما تحت الشعور ، كيف يتحقق هـذا ؛ فتشنر يغفل خطوة هامة ، هى أن الفكرة المنتقلة عليها أن تهبط أولا عند العامل إلى مستوى ما تحت الشعور ، وهناك تبقى حتى إذا هبط المستقبل إلى هذا المستوى التقطها لأنها فى ميدان مشترك بينه وبين العامل ، أما إذا بقيت فى ميدان الشعور فلن تنتقل ، لأن ميدان الشعور تظهر فيه الفردية ؛ فلكل فرد عالمه المغلق عليه .

وهناك اعتراض آخر يثيره بعض العلماء من ذوى النزعة الوضعية ، يقولون إن نظرية تشنر ذات صبغة صوفية ، إذ تجعل لما تحت الشعور نوعاً من الوجود الموضوعى ، وبذلك تعمل برأى فون هارتمان الذى يقول إن التخاطر اتصال تليفونى بالمطلق .

أما الدكتور سينل فيضع نظرية أخرى لتفسير هذا النوع من الظاهرات ؛ وتعتمد هذه النظرية أولا وقبل كل شىء على ما يسميه « بالحاسة السادسة » ؛ فإذا كنا

قد تعارفنا على أن لدينا خمس حواس ، وأنها هى النوافذ التى تنفذ إلينا معرفة العالم الخارجى منها ، فإن فى أدمغتنا بين أجزاء المخ المختلفة جزءاً يسمى « بالجسم الصنوبرى » ، لا يكاد يعرف له رجال الطب المحدثون وظيفة معينة ، وبذلك تتضارب أقوالهم عنه ، ويرى بعضهم أن وظيفته خاصة بناحية النمو الجنسى ، ولكن يظهر أن هـذه ليست وظيفته ، وإنما وظيفته التقاط الموجات المنبعثة من الأشياء وتوصيلها إلى الفصوص البصرية ، أو التقاط الموجات المنبعثة من أدمغة أفراد آخرين يفكرون .

فكل الأجسام المحيطة بنا تنبعث منها إشعاعات أو موجات مغنطيسية ، هذه حقيقة علمية لا شك فيها ، والجسم الصنوبرى وظيفته أن يتلقى هذه الإشعاعات « التى تستعصى على الحواس المعروفة ، فيزجيها إلى أجزاء المخ التى تستطيع أن تجعلها جلية واضحة ، بل تستطيع أن تحولها إلى لون من ألوان الوعى . »(١)

ولما كان كل شىء حولنا يصدر هذه الإشعاعات ، فإنها تختلط على غير المستقبل المتمرن ، أما هذا المستقبل فإنه يعرف كيف يضبط الجسم الصنوبرى لديه لتلقى هذه الأشعة دون تلك ، تماماً كما نضبط الجهاز اللاسلكى لاستقبال هذه الموجة دون تلك ؛ « والفرق الوحيد بين الجهازين اللاسلكى والعقلى هو أن الأول مكون من مادة غير عضوية على هيئة بطاريات وأسلاك ، وأن الثانى مكون من مادة حية فى شكل خلايا حساسة وأنسجة عصبية . أما عمل الاثنين فواحد ، وهو إيصال الموجات الأثيرية غير المنظورة وغير المسموعة إلى الحواس فى شكل تموجات مفهومة مميزة » وحجته فى ذلك الرأى ، أن الجسم الصنوبرى « يشغل فى أجسام الفقاريات الدنيا كـكلب البحر والزعاد والقرش موضعاً يجعل طرفه قريباً جداً من جلدها ، حتى ليكاد يتصل به ، وأن فى جماجم هذه الحيوانات كلها فتحة تمكن هذا الجسم من أن يكون أقرب ما يستطاع من « العالم الخارجى » . . . « إن هذه الفتحة الموجودة فى الجمجمة هى التى تعرف باليافوخ الأمامى ، وهى عبارة عن جزء من الجمجمة

(١) الحاسة السادسة ص ٢٨

لايتجير طول زمن الطفولة فى الحيوانات الفقارية العليا كالإنسان ، بل يظل «مفتوحاً» كما تقول مربيات الأطفال . »[١]

ثم يتساءل « إذا كان هذا الجسم غدة وظيفتها تنظيم التطور أو الأمور الجنسية ، كما يقولون ، فكيف صح أن يكون مقره وسط المخ بين المراكز التى تستقبل المرئيات ، ولماذا هو محمول على ساق ؟ وفوق هـذا وذاك لِمَ كان له فى الحيوانات الفقارية الدنيا فتحة تشبه النافذة فى الجمجمة » .... « لهذا أجرؤ فأزعم أن الجسم الصنوبرى أو ما يماثله فى الحشرات هو مقر حاسة سادسة تنشأ عنها كل الظواهر التى يزعم الناس أنها من الظواهر الخفية »[٢] كالتخاطر والاستشفاف .

والدكتور سينل يعنى بالاستشفاف أكثر مما يعنى بالتخاطر ، ويرى أن هذا النوع من الإحساس (الذى نسميه الاستشفاف) إبصار حقيقى بفارق واحد ، هو أنه يصل إلى الفصوص البصرية بطريق آخر غير طريق العينين ، مثله فى ذلك كمثل دقات الساعة عند ما تسمع عن طريق الأسنان ؛ أما فى التخاطر فإن تذكرى أو تصورى لشىء معين ، هو عبارة عن ذبذبات ذهنية تولدت فى مخى عند ظهور هذه الذكرى أو هذه الصورة فيه ، وهى تبعث ذبذبات مماثلة لها فى مخ المستقبل ، فإذا هو يفكر كما أفكر ؛ تلك نظرية سينل فى تفسير ظاهرتى التخاطر والاستشفاف .

وأول اعتراض يمكن أن نوجهه إليها ، هو أن صاحبها لم يقم الدليل القاطع على أن الجسم الصنوبرى يقوم بتلك الوظيفة التى يعزوها إليه ، كل ما هنالك أن هذا الجزء من أجزاء المخ لا يعرف رجال الطب له وظيفة ثابتة حتى الآن ، وهو يقول لم لا تكون وظيفته هى تلقى تلك الموجات أو الإشعاعات المغنطيسية ، وأبسط ما يقال رداً على ذلك ، ما الذى يحتم أن تكون تلك المهمة ملقاة على عاتقه ؛ لا شىء طبعاً ،

---

(١) المرجع السابق ص ٢٧

(٢) المرجع السابق ص ٢٨

إنما هو فرض فحسب ، بل فرض خيالى لا يقوم على أى أساس[١] .

على أن السؤال الذى يلقيه سينل ليبرهن بطريق غير مباشر على صدق ما افترضه، ينزع إلى التفسير بالغائية ، مما لا يتفق وروح العلم ؛ فالقول بأن الجسم الصنوبرى موجود وسط المخ بين المراكز التى تستقبل المرئيات ، وهو محمول على ساق وراء فتحة تشبه النافذة فى الحجمة ، القول بأن العلة الغائية لهذا الوضع هى الوظيفة التى هى استقبال الإشعاعات ، ضرب من التفسير بالغائية ، كقول جالينوس إن العين تقوم فى مقدم الرأس حتى يتسنى لها الإشراف على المرئيات . هـذا إلى أن تلك النظرية تصادر على القول بأن كل نشاط ذهنى لا بد أن يصحبه نشاط معين فى مادة المخ ، مع أن هذا القول يحتاج إلى ما يبرهن على صدقه ، وإلا فلماذا نفضله على قول إريك بخر بوجود عمليات ذهنية لا تعتمد على مادة المخ بأى حال من الأحوال .

هناك ، سوى هاتين النظريتين ، نظريات أخرى ، نذكر منها نظرية « مجال القوة» التى أشار إليها السير أوليفر لودج فى كتابه «بقاء الإنسان» The Survival of Man ونظرية « الطاقة النفسية » التى قال بها أوستفلد Ostwald ونظرية «البالونات الطليقة » التى قال بها فاركولييه . والظاهر أن هناك نظريات أخرى غير ما ذكرت[٢] .

ولكن يخيل لى أننا ما زلنا فى حاجة إلى البطء والأناة وإجراء مئات التجارب[٣]

---

(١) ينتهى العالم الفسيولوجى المشهور شارل ريشيه من دراسته المستفاضة للظواهر النفسية الخفية إلى أنه لا يمكنه حتى الآن تكوين فرض علمى لمحاولة تفسير هذه الظواهر : راجع كتاب « ما بعد النفس » ص ٨١٩

(٢) انتهى زميلى محمود العالم إلى نوع من التفسير الميتافيزيقى للظاهرة لا بأس من الإشارة إليه فى إيجاز ، وهو يقوم فى أساسه على هوية الفكر والوجود ، وارتقاء الفكر فى عملية تطورية تجتاز مراحل ثلاثة ، يصـل فى نهايتها إلى قمتها الإيجابية ، وهى « التفكير » الفردى ، وإذاً فتفـكيرنا الفردى له بطانة مشتركة بين الجميع .

(٣) أذكر هنا بعض نسب النجاح فى تجارب زملائى :

(ا) تجارب الآنسة سميحة زكى : ٤٦ ٪

(ب) تجارب أمين عز الدين : ٥٠ ٪

(ج) تجارب محمود العالم : ٤٥ ٪

(د) تجارب فؤاد واصف : ٦٦ ٪

حتى إذا خطونا نحو تكوين نظرية ، ألفيناها تنتقل بظاهرتى التخاطر والاستشفاف من ميدان العلم الخفى Occultism إلى ميدان العلم الوضعى ، كما انتقل التنويم المغنطيسى منذ وقت غير بعيد .

وأعود فأكرر ما قلته من قبل ، ليس يلزمنا أبداً أن نبحث عن نظرية ذات طابع معين ، إنما يلزمنا أن نكرر التجربة فى غير فتور أو ملل ، ومن شأن هذا التكرار أن يكشف لنا عن الأحوال الملائمة والأحوال غير الملائمة لإنجاز الظاهرة ، ومن ثم يكون فى استطاعتنا أن نستنتج قوانينها ، التى لا تزيد على أن تكون مجموعة من العلاقات ، ويجوز لنا بعد ذلك أن ننصرف عن البحث فى طبيعة الظاهرتين ، فإن العلم لا يجيب عن سؤال « ما هو » وانما يجيب عن سؤالى « كيف »و«ولماذا».

Résumé.

LA CLAIRVOYANCE ET LA TÉLÉPATHIE

Par

Mostafa Ismaïl Soueif

A propos de plusieurs séries d'expériences faites au Laboratoire de Psychologie de la Faculté des Lettres du Caire, sur la télépathie et la lecture musculaire, l'auteur après avoir établi le fait de la lecture musculaire de la pensée comme très probable, passe en revue les diverses explications de la télépathie données par F. W .H. Myers, Sir Oliver Lodge, Tischner et Sinel. Il en montre les insuffisances et conclut en indiquant les difficultés d'établir un contrôle suffisant et efficace des conditions des expériences.

Il souligne l'impossibilité de formuler à l'heure présente une hypothèse quelconque susceptible d'être vérifiée.